ضوابط القراءة النصية في كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدي

The Textul reading controls in the book of Counterbalancing between the Ta' iyeen (Al-Muwazanah) of El Amidi

عبد السلام لوبار*

تاريخ الإرسال: 2020/05/09	تاريخ القبول:2020/06/30	تاريخ النشر:2020/06/30

الملخص:

يستعرض البحث أهم القضايا التي شغلت المدونات النقدية التراثية ولا زالت ترافق مسيرة النقد المعاصر وهي قضايا النص الأدبي، فحاولنا الإبانة عن الوعي النقدي بهذه القضية في كتاب الموازنة بين الطائيين لأبي القاسم الآمدي، باعتباره من أهم الكتب التي تحرت الموضوعية وجانبت المناهج السياقية، وكان لها اتصال وثيق بعمود الشعر، واستقراء الخصائص التي تجعل من القصيدة نصا شعريا، بل وتعداه إلى الحديث عن النصوص النثرية، واستشهاده بأقوال سابقيه من النقاد الذين أفاضوا الحديث في أكثر المعايير اشتراطا لنصيّة النص ألا وهما معيارا الاتساق والانسجام، ولعل مرد ذلك إلى الدراسات القرآنية التي حامت حول التنزيل الكريم المتسق بين آياته وسوره، المنسجم ككلمة واحدة، ليصل إلى اختيار النص الشعري النموذج المتفق عليه شكلا ومضمونا، ما لمسناه في الكتاب هو محاولة تطبيقه معايير النصية على أشعار أبي تمام والبحتري ومقارنتها بأشعار كثير من الشعراء ليضع النهج الصحيح للنص الشعري، بدءا بعنصر الاتساق وما يتضمنه من ربط وإحالة وتكرار وترادف وتكرار وتضام، وتحديد، ثم عنصر الانسجام من حرص على إيراد السياق والوحدة الموضوعية والصور الشعرية وصولا إلى التناص، وإن كان غير مصرح بكثير من هذه المعايير إلا أنها واضحة الاشتراط ؛كون الآمدي عدَّ الخروج عنها عيبا يفقد النص تماسكه ونصيّته.

المؤلف المرسل: عبد السلام لوبار Loubar.laarbi@gmail.com

* جامعة علي لونيسي-البليدة2 ea.loubar@univ-blida2.dz

الكلمات المفتاحية: الموازنة، النصية، الاتساق، الانسجام،

Abstract:

The research examines the most important issues that have occupied the traditional Literary Criticism, and they are still accompanied by the contemporary criticism of the textual issues. We tried to express the critical awareness of this issue in the book of the Counterbalanc between al-Ta'iyeen of Abu al-Qasim al-Amidi, (Al-Muwazanah) as one of the most important books that investigated objectivity and avoided contextual approaches. The extrapolation of the characteristics that make the poem a poetic text, but rather to talk about the prose texts, and of the statements of the previous critics who have elaborated on the most modern standards of the Text Science, the standard of cohesion and coherence, perhaps due to What we have seen in the book is the attempt to apply the textual criteria to the poems of Abu Tammam and al-Bohtori and compare them with the poems of many poets to put the correct approach. Of the poetic text, starting with the element of cohesion and its associated linking, repetition, synonymity, repetition, coherence, and then the element of coherence of the keenness to bring the context to the textuality, because these standards are necessary for text coherence

***Key words**: Counterbalancing, textuality, cohesion , coherence.*

مقدمة:

يمكن تمييز مذهبين كبيرين في التعامل مع التراث العربي أولهما عدم القدرة على الاستغناء عنه لإنشاء دراسات وثيقة الصلة به؛ مشيدة على أساساته كونه من صميم اللغة والثقافة وكما أثبت نجاعته في دراسات الأقدمين كما كان دأبهم أخذا عن كل سابقٍ، فلا غرو أن تستمر هذه النجاعة في دراسات المتأخرين، وأما الثاني فقد اتخذ من العقوق مذهبا فأعرض عن هذا التراث ولم يلتفت إليه زاعما أنه من شأن القديم ولا يرتجى نفعه في الدراسات المعاصرة التي تنأى عنه نأيا بعيدا، بل يرى أنَّ السبب في ركود الدراسات الحديثة والمعاصرة هو الارتكان إلى التراث وعدم التفكير خارج أطُره التي رسمها، بيد أن الأصوَب عدم نبذ هذه الجهود المُخلِص جُلها (بناء على عدة اعتبارات معروفة)، كما لا يصلح نبذ ما ورد إلينا من منجزات المعارف العالمية، كون الحضارة منجزا عالميا غير مقتصرٍ على أمة بعينها، وإنَّ إلقاء نظرة على التراث اللغوي والنقدي تُبرز كما هائلا من الدراسات -تواصلت زهاء أربعة عشر قرنا- قلَّ نظيرها في المنجز البشري كله، وإن كثيرا منها يصلح لأن يتخذ مرتكزا للدراسات

اللغوية والنقدية السارية في عصرنا بحيث وجدنا فيها شيئا عظيما لا يجوز إغفال إسهامه في الدراسات النقدية والقراءة النصية الأمر الذي وجدناه في كتاب **الموازنة بين الطائيين لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي**، باعتباره أول من أرسى قواعد الموازنة المنهجية "تلك التي لا نجدها إلا عند الآمدي الذي كتب كتابا نعتبره من أهم ما خلف العرب من تراث"[1]، فقد ألزم الناقد نفسه التقيد بموضوع الموازنة بين طبيعة شعر **أبي تمام والبحتري**، خاصة حين لا نرى علاقة بين أغلب قصائد الشاعرين وشخصيتهما، إذ "حاولا صياغة المعاني القديمة في قوالب جديدة"[2]، لذلك كانت الموازنة بينهما نصية إلى حد كبير عُنيت بالجانب الفني وحسن النظم، دون محاولة قياس على السياق. وقف الآمدي على المعاني في شعر البحتري وأبي تمام واستخرج ما تناص فيه مع غيره من أشعار الأقدمين فيما كان يعرف بالسرقات الأدبية، وعلى السمات والعيوب البلاغية التي وجدت في قصائد الشاعرين موردا حجج النقاد الذين كان لهم السبق في الاهتمام بهما، حيث "ذكر طرفا من سرقات أبي تمام وإحالته وغلطه وساقط شعره، ومساوئ البحتري في أخذ ما أخذه من معاني أبي تمَّام، وغير ذلك من غلط في بعض معانيه، ثم وازن بين قصيدتين إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية، ثم بين معنى ومعنى"[3] ، كما لم يغفل الالتفات إلى الانسجام النصي والترابط وتخير الألفاظ المناسبة للمعاني لأنه كان "يعلم أنَّ سوء التأليف ورداءة اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه حتى يحوج مستمعه إلى طول تأمل"[4]، وقد التزم في موازنته الحياد على طريقة الدراسات الشكلية المعاصرة، فلم يهتم بإطلاق حكم أو إبداء رأي أو مفاضلة نص على آخر "ولم يحب أن يطلق القول في أيهما أشعر لتباين الناس في العلم واختلاف مذاهبهم في الشعر ولا يرى لأحد أن يفعل ذلك فيستهدف لذم أحد الفريقين"[5] بل يصرح بالمعايير العامة التي ينبغي أن تراعى ويكل الاحتكام إلى القواعد عند كل ناقد قائلا "فإن كنت أدام الله سلامتك ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق فالبحتري أشعر عندك ضرورة. وإن كنت تميل إلى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوى على غير ذلك فأبو تمام عندك أشعر لا محالة"[6]، إذ لا أثر صريح في كتاب الموازنة من تحيز أو تعصب وإن وجدت فيه الألفاظ التي

توحي بالأحكام فإن الآمدي لم يكن ينسبها لنفسه بل كانت مذاهب النقاد والدارسين قبله، لأنه قد صرح من قبل بذلك.

2. النص بين الإسهامات اللسانية القديمة والمعاصرة:

اهتم علماء اللغة واللسانيات بتعريف النص خاصة بعد تطور الدراسات التي تجاوزت حد المفردة الواحدة فالجملة، إلى مفهوم النص، مادام مكونا من هذه المفردات والجمل التي لا تصنع شيئا خارج نصها هذا، لذلك جاء التأكيد على النظر إليه كوحدة كلية مترابطة الأجزاء، "فالنص ليس مجرد تتابع لبعض الجمل لا رابط بينها، بل لابد أن ينطوي على مجموعة مميزة من الخصائص التي تفضي إلى التماسك والانسجام" على قول جون ليونز[7]. لذلك نجد السيوطي يقارب مفهوما للنص حين يقول إنَّ على الكلام أن يكون بخلوه من الانعقاد منحدرا كتحدر الماء المنسجم"[8]، وقد كانت الممارسات النصية العربية القديمة مرتبطة بالقرآن الكريم ووصف نصيَّته بألفاظ مثل الاتصال والالتزام والتلاحق والاتساق والمناسبة والتناسب[9]. وقد اشترك النقد الأدبي في صياغة مصطلحات هذا الحقل أيضا خاصة في قضايا مثل السرقات، البناء، التآخذ، تلاحم الأجزاء والتئامها وحتى السبك والاتساق، وكل ما ظهر في مؤلفات الجاحظ والقرطاجني والآمدي وغيرهم، مما استثمر من قبل اللغويين في محاولة بلورة مفهوم لمصطلح النص إذ أنَّ أكثر ما دلت عليه الكلمة هو الظهور والوضوح والاكتمال، أو ما لا يحتمل إلا معنى واحدا[10]، إلا أن هذا يتعارض مع أحد أهم معايير النصية في النص وهو معيار التأويل، كما أشار هاليداي إلى أنَّ كلمة نص تستخدم لتدل على أي فقرة مكتوبة مهما كان طولها شريطة أن تكون وحدة متكاملة[11]، إلى أن استقر مفهوم النص على ما صاغة روبرت ديبوجراند، ودريسلر أنَّ النص حدث تواصلي يجب أن تتوافر له سبعة معايير هي السبك والحبك، والقصدية والمقبولية والإعلامية، والموقفية والتناص[12].

3. معايير النصية عند الأمدي:

يعد الآمدي من أوائل النقاد الذين تمثلوا معاني النصيَّة، قبل أن تفيض فيها الدراسات المعاصرة بقرون حيث نجده اعتمد كثيرا من مفاهيمها خاصة الحبك والسبك الذين يركز

عليهما كثيرا واعتبرهما سمة فارقة في النص الشعري، فنجده يستعمل كثيرا مصطلح حسن السبك أو صحة السبك وحسن التخلص والنسج ووضع الكلام في مواضعه وغيرها من المصطلحات الموحية باتساق النص وانسجامه إضافة إلى بعض المفاهيم التي وقفنا عليها كالوحدة الموضوعية في تخيره لمواضع الموازنة، فقد تفطن إلى أن موازنة الأبيات مجتزأة غير مجدية رغم أنه يقر أنها منهج سليم خاصة إذا اتفقا في الأوزان والقوافي، لكن ذلك لا يتفق مع اتفاق المعاني التي إليها المقصد، فجعلها مرماه وغرضه، فابتدأ بالموازنة في موضوع الوقوف على الديار والآثار، ووصف الدمن والأطلال، ثم الدعاء لها بالسقيا وما يخلف ظاعنيها السابقين من الوحش[13]، وصولا إلى التجديد في موضوعات النهي عن البكاء على الأطلال وترك الديار والحديث عن الغزل والحب والشباب والكبر واعوجاج الزمن وخروجهما إلى المديح فقسم الموضوعات إلى مدح الخلفاء ومدح أهل بيت النبوة ثم المراثي والتهديد والوعيد[14]، ما يلمح إلى ضرورة تصنيف النص أو موضعته حتى تتأتى له خاصية النصوصية ويصبح قابلا للانقراء وبالتالي الفهم فالحكم النقدي أو الموازنة.

ونرى الأمدي يورد الأبيات مفردة حين تكون مستوفية لمعناها، إذ لا يشترط في النص أن يكون كما متراكبا من الجمل، فقد تكون الكلمة الواحدة نصا كما ذكر آنفا، فحين احتيج إلى إيراد البيت نجده يورد البيت مستقلا لما عرف من وحدة البيت في أشعار الأقدمين ولما لم يقتض اشتراط المعيار إيراد القطعة كاملة، لكنا نراه يورد البيتين أو أكثر أو القطعة والقصيدة حين يتعلق الأمر بالوحدة الموضوعية كما وجدنا عند عتاب محمد بن عبد الملك الزيات[15]، وغير ذلك كثير، ومنه عدم توقفه عند وحدة البيت بل تجاوزه إلى مفهوم الجملة ومعرفته أنه لا يتم معناها إلا بما قبلها وبعدها مثل قول أبي تمام[16]:

ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شحب

فالشمس طالعة من ذا وقد وجبت...والشمس آفلة من ذا ولم تجب.

لعطف البيت الثاني على الأول، كما نجده في البيتين التاليين أيضا[17]:

وركب كأطراف الأسنة عرسوا على مثلها والليل تسطو غواهبه

لأمر عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه

كما أنه يتحدث عن حسن السبك الموافق لاتساق مفردات ومعاني الخطاب في أبيات أبي تمام:

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

وأخطأ في المعنى بقوله في الدماء نواهل فالنهل الشرب الأول والعلل الشرب الثاني والعقبان لا تشرب الدماء وإنما تأكل اللحم[18].

1.3 الاتساق:

يرى محمد خطابي ورقية حسن أنَّ الاتساق هو ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنص أو خطاب، ويتهم فيه بالوسائل اللغوية والعلاقات المعنوية التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب أو خطاب برمته، والقائمة داخله لتحدده كنص[19]، وتعد مظاهر الاتساق من المعايير المسلم بها في النص القديم لذلك لم يكن مناص من اتخاذه معيارا نصيا كونه شرطا أساسيا من شروط النص، ومن الأساسات التي ميزوا بها النص القرآني عن غيره من كلام العرب على فصاحته واتساقه، بل نجد تعصبا كبيرا للنقاد حول معيار الاتساق فلا نكاد نراهم يقبلون من الشعر إلا ما كان قديما وجاهليا لتمكن أصحابه من ناصية اللغة وعلمهم بتصاريف الكلام وحملهم المعاني في ألفاظها المناسبة لها مع ترابط هذه الألفاظ.

2.3 معايير الاتساق عند الآمدي:

أ-الإحالة:

تعد الإحالة من المظاهر كثيرة التداول عند الربط بين عناصر النص ويعرفها ديبوجراند بأنها العلاقة بين العبارات والأشياء والأحداث والمواقف في العالم الذي يدل عليه بالعبارات ذات الطابع البدائي، إذ تشير إلى شيء ينتمي إلى نفس عالم النص[20]، فهي الألفاظ التي تعود على عناصر أخرى مذكورة في أجزاء من النص، وللكاتب الحق في استعمال الإحالة حسبما يريد، فتكون ضمائرا أو أسماء إشارة أو أدوات مقارنة مثل صيغ التفضيل أو التشبيهات، غير أنَّ الآمدي يقدم تصورا أكثر تطورا للإحالة ليبين مواضع استعمالها لذلك كان واضحا أن يعيب في شعر أبي تمام تغييره للإحالات إلى مجال يخرجها عن الاتساق في مثل قوله[21]:

ضحكات في إثرهن العطايا...وبروق السحاب قبل رعوده

فقد أخذ عليه إقامة البرق مقام الضحك والرَّعد مقام العطايا، في غير مناسبة بينها، فاشترط التناسب بين المحيل والعنصر المحال إليه، فالتشبيه الضمني في البرق في هذا المثال غير مناسب للإحالة على الضحك، كما نسب الآمدي لأبي تمام وللبحتري أخطاءً كثيرة في هذه العناصر الإحالية تحرف المعنى "ولا يقوم العذر فيه إلا بالتأويلات البعيدة، بل لو رام أن يخرج ما في شعرهما من اللحون لوجد منه ما يضيق العذر فيه، ولا يجد المتأول له مخرجا منه إلا بالطلب والحيلة والتمحل الشديد، وذلك نحو قوله[22]:

ولقد شفى الأحشاء من برحائها...أن صار بابك جار مازيّار

ثانيه في كبد السماء ولم يكن...لاثنين ثان إذ هما في الغار

وقد أخذ على هذا البيت أن عليه أن يقول (لم يكن لاثنين ثانيا) لأنها خبر يكن، واسمها هو اسم بابك مضمر فيها، فليس إلى غير النصب سبيل وإلا بطل المعنى، وفساده أنك إن أخليت يكن من ضمير بابك وجعلت (ثاني) اسمها كان ذلك خطأ ظاهرا قبيحا، كما أنك إذا قلت كان زيد وعمرو اثنين، ولم يكن لهما ثانٍ؛ كنت مخطئا، لأن الاثنين أحدهما ثانٍ للآخر[23].

أورد الآمدي أنَّ "ابن الأعرابي أُنشد أبياتا لم يعرف قائلها فاستحسنها، وأمر بكتابتها فلما عرف أنها لأبي تمام قال: خرِّقوا" [24] لما كان يعلم من دخول التوليد في هذه الأشعار وخشيته على فساد اتساقها على قوة ألفاظها ومعانيها التي التبست عليه أول الأمر، فقال إن "الأمر يتعلق بعدول شعره عن مذاهب العرب المألوفة، وخروجه إلى الخطأ أو الإحالة[25]، الشيء الذي حدث مع الأصمعي حين أنشده إبراهيم الموصلي:

هل إلى نظرة إليك سبيل...فيروي الصدى ويشفي الغليل

فقال الأصمعي: لمن تنشدني؟ فقال: لبعض الأعراب، قال والله هذا هو الديباج الخسرواني، قال: فإنهما لليلتهما، فقال: لا جرم والله إن أثر الصنعة والتكلف بيِّن عليهما[26].

ب-التحديد:

ينسب التحديد إلى أداة التعريف التي تدل عادة على الاسم المذكور قبلا فلا يتطلب تنشيطا كبيرا للذهن كونه معلوما لدى المتلقي[27]، نجد الآمدي ينسب دور التحديد إلى الألف واللام ويستدرك على أبي تمام استعمالها في غير موضعها، للاسم المعرفة بالعلمية، في البيت:

شامت بروقك آمالي بمصر، ولو...أضحت على الطوس لم تستبعد الطوسا

فأدخل الألف واللام على بلدة طوس وهي معرفة بالعَلَمية وأشار الآمدي إلى أن تخطئته كانت في باب المعاني والإحالات (نراه يطلق مصطلح الإحالة عليها) مع سوء السبك ورداءة الطبع، "فإنما عابه بخطئه في معانيه وإحالاته[28].

وعكس ذلك عدم تحديد الشاعر للعنصر المحال بالألف واللام كأبيات قيس بن الخطيم:

أنى سربت وكنت غير سروب...وتقرب الأحلام غير قريب

ما تمنعي يقظى فقد تؤتينه...في النوم غير مصرد محسوب

وقد أقام فيه مقاما لمعترض حيث نسي إضافة أداة التعريف في يقظى وعلة ذلك أن المراد هو المصدر وليس الفعل، كما استعمل المصدر (النوم)، ليكون الشاعر والمحبوب مشتركين تمثل الحال، فكان الأجود لو قال: ما تمنعي في اليقظة فقد تؤتينه في النوم[29].

وما لمسناه من مظاهر الاتساق التي أبان الآمدي عن وعي بها الاتساق المعجمي، وهو العلاقة الجامعة بين الكلمتين أو أكثر داخل المتتابعات النصية، وهي علاقة معجمية خالصة[30]، وتكون العلاقة المعجمية بين الكلمات في النص إما تكرارا لها بين لفظ ومعنى أو تضاما عن طريق الترادف أو التضاد.

ج-التكرار:

عد الآمدي التكرار من معايير النص الشعري غير أنه وضع له ضابطا هو عدم الإكثار، ورأى أن لو كان الشاعر قلل منه، حتى لا يصبح غرضا للشاعر ويبني شعره عليه[31]، إلا أن يحسن استعماله مثل قول جرير[32]:

وما زال معقولا عقال عن الندى...وما زال محبوسا عن الخير حابس

فجعل من تكرار العقل والعقال، الحبس التي تتقارب معانيها المعجمية لتدل على الربط والإيقاف والمنع، ويؤصل لمصطلح التضام الذي يعني العلاقة الناشئة بين عنصرين (تابع ومتبوع)[33]، ويرد في صور متضادات كالطباق أو التنافر وقد وجد الآمدي في ما توافر له من أشعار ما يكفل له وضع قواعد للتضام خاصة المستمد من الدراسات البلاغية السابقة له، كالطباق والتقابل والتنافر، فيضرب لذلك مثلا بقوله تعالى " ولكم في القصاص حياة"

البقرة-179، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار: "إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع"

وأما في الشعر فقول زهير:

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا...ماالليث كذب عن أقرانه صدقا

فطابق بين الصدق والكذب

وقول الغنوي:

بساهم الوجه لم تقطع أباجله...يصان وهو ليوم الروع مبذول،

وطابق بين يصان ومبذول

وأثنى على مسلم بن الوليد إذ يتخذ من هذه الأنواع معتمَدا في شعره يوشحه به ويضعه في مواضعه وتبعه أبو تمام وذكر ثناء ابن المعتز عليهم اللهم إلا في بعض إسفافهم ومبالغتهم في استعماله، فهو يحمد التوسط في الاستعمال لأن النص إذا أفرط فيه من وجود مثل هذه التقابلات حتى تصبح غاية في ذاتها اضطرب اتساقه، و"وصار استكثاره منه وإفراطه فيه من أعظم ذنوبه"[34].

3.3 الاتساق الصوتي:

من الوسائل الرئيسية التي توظف مع وسائل أخرى ليتحقق مفهوم السبك النصي، وهي موجودة بكثرة في اللغة العربية كالجناس والسجع والعروض والقافية والوزن، ولا يخفى ما يتوفر فيها من بعد موسيقي يسهم في تماسك النص وإيصال معناه[35]. وقد أكد الآمدي على مفهومات متقدمة جدا في موضوع الاتساق الصوتي أولا فيما يخص علاقات الجناس والسجع بين جمل النص، مؤصلا له بالنصوص القرآنية بدءا بقوله تعالى: "وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين" النمل-44، وقول القطامي[36]:

فلما ردها للشول شالت بذيال يكون لها لفاعا

وبين ما يكون منه حسنا وما يكون سمجا قبيحا، إذا كثر في النص وظهر على معانيه حتى يؤثر فيها، كمثل قول امرئ القيس[37]:

لقد طمح الطماح من بعد أرضه...ليلبسني من دائه ما تلبسا

وقوله:

ولكنني أسعى لمجد مؤثل...وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وأما ما يزين النص من الجناس عنده قول جندل بن الراعي:

فما عمرت عمرو وقد جد سعيها...وما سعدت يوم التقينا بنو سعد

ورأى أن الطائي قد أعجب بهذا الضرب من التجنيس فاعتمده وجعله غرضه وبنى أكثر شعره عليه، وجعل من الألفاظ المتجانسة اللائقة بالمعنى، فأكد على علاقة الجناس بالمعنى الكلي للنص، وكيف يساهم في مجانسة المعاني مع بعضها[38].

ويظهر علاقة الوزن بالمعنى ومساهمته في تماسك النص واتساقه إذا ما اختل الوزن في البيت فمن ذلك قول أبي تمام:

لم تنتقض عروة منه ولا قوَّة...لكنَّ أمر بني الآمال ينتقض

فزاد حرفا في العروض لأن (قوَّة) مشددة على وزن فاعلن، فإن خففها حتى تصير على وزن فعلن فيتزن البيت؛ كان مخطئا من طريق اللغة[39]

فيجعل اجتماع استواء النظم وصحة السبك ووضع الكلم مواضعه وكثرة الماء ورونقه شرطا لأن يحكم للنص بالجودة والنصية [40].

4 الانسجام:

يقصد بالانسجام في الدراسات النصية الترابط المفهومي بين عناصر النص، ويتحقق عن طريق عدة عناصر نصية وعمليات يقوم بها المتلقي ليتمكن من معرفة موضوع النص والوصول إلى بنيته الكلية ومن مظاهره:

1.4 السياق:

إنَّ من أظهر ما اهتم به الآمدي هو سياقات النص؛ لذلك تراه يشدد ذكر عناصر الخطاب كما أوردها جاكوبسون وهايمس كاملة من المرسل إلى المرسل إليه فالرسالة فالموضوع الذي تحمله واللغة أو النظام التي حملتها وكتبت به، والقناة الموصلة لها لأن السياق يوفر المعطيات التي لا توفرها الخصائص الشكلية نحوية ومعجمية، ويفضي عدم وجود السياق إلى خلل في فهم النص، ونجد في كتاب الموازنة اهتماما بسياقات النص على

قدر ما توفرت للآمدي وإن كان مرد ذلك إلى الاهتمام بالرواية والسند في مثل هذه الكتب، فقد ذكر الآمدي أطرفا من مجالس أبي تمام والبحتري وسائر الشعراء المذكورين مثل اجتماع البحتري وأبي تمام في بلاط أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري، فقد دخل إليه البحتري بقصيدته التي أولها:

أأفاق صب من هوى فأفُيقا...أم خان عهدا أم أطاع صديقا

وأبو تمام حاضر فعلق في ذهنه أبيات كثيرة منها، فلما فرغ أقبل عليه واتهمه بسرقة شعره، وشكاه إلى الأمير، وقد أنشد الأبيات التي حفظها فبهت البحتري، ورأى الإنكار في وجه أبي سعيد، فحينئذ قال أبو تمام والله ما الشعر إلا له، ولقد أحسن فيه الإحسان كله[41].

واستطاعت هذه القصة أن توضح كثيرا من معاني لقاء أبي تمام والبحتري عند الأمير، بل تروي كيفية التلقي للموقف الممثل له كالآتي:

المرسل: البحتري

المتلقي: الأمير أبو سعيد محمد بن يوسف

الحضور: أبو تمام

المقام: بلاط الأمير أبي سعيد

الموضوع: مدح الأمير أبي سعيد الثغري

القناة: الهواء (النقل الشفهي/ المشافهة).

النظام: اللغة العربية.

شكل الرسالة: قصيدة شعرية

المفتاح: تضارب العاطفة بين استحسان الرسالة، ثم انزعاج عند ظهور الانتحال، وعودة إلى الرضى بعد تراجع أبي تمام عن تهمة الانتحال.

ويحرص الآمدي على ذكر عناصر الرسالة ما اتفق له ذلك ويشرح سياقها والمراد منها لوعيه بضرورة توافر تلك العناصر في النص إن كان غير مصرح بها كون الكتاب لم يكن دراسة في نصية النصوص.

لقد أظهر الآمدي وعيا نقديا بقضية الانسجام ومعاييره فعطفا على ما سلف يعقد بابا يوضح فيه عدم انسجام الكلام وتنافر الألفاظ ويطلق عليه مصطلح النسج وهذا مصطلح شائع عند الأقدمين فيقول: "وهذا باب في سوء نسجه وتعقيد نظمه ووحشي ألفاظه، ويستشهد بقولة عمر بن الخطاب في زهير ابن سلمى، ثم يفسر معنى المعاظلة عند أهل العلم بأنها مداخلة الكلام بعضه في بعض وركوب بعضه لبعض[42]. وإن توافر على بعض أسباب النظم ويمثل لذلك بقول أبي تمام:

خان الصفاءَ أخٌ خان الزمانُ أخًا...عنه فلم يتخوَّن جسمه الكمد

ويعلق قائلا: فانظر إلى أكثر ألفاظ هذا البيت ما أشد تشبث بعضها ببعض وما أقبح ما اعتمده من إدخال ألفاظ في البيت من أجل ما يشبهها، وإذا تأملت المعنى لم تجد له حلاوة ولا فيه كبير فائدة[43]. بل إنَّه يصرح حتى إن كان التكرار والترادف من معايير النصية، فإن إساءة استعمالهما يضعفان من بنية النص ومن معياري المقبولية، والإعلامية وإن توافر شرط القصيدة فيه لكن يخرجه سوء اتساقه وانسجامه إلى غير ما أراده صاحبه.

والآمدي يورد كافة الحجج التي تصب في قالب النصية والردود عليها ليثبت أن اتساق النص وانسجامه لا يتقصر فقط على تعالق الكلام ببعضه "فالمحمود من الكلام هو أن يتشبث بعضه ببعض، وتتعلق كل لفظة بما يليها، وإدخال كل كلمة من أجل أخرى تشبهها وتجانسها، وقد وصف البلغاء جيد النثر والنظم بالكلام الذي يدل بعضه على بعض، ويأخذ بعضه برقاب بعض" بل إن المراد "أن تقع الألفاظ في مواقع المعاني، وأن تأتي الكلمة مع أختها المشاكلة لها التي تقتضي أن تجاورها لمعناها إمَّا على الاتفاق أو التضاد، حسبما توجبه قسمة الكلام...فإذا أنشدت صدر البيت علمت ما يأتي عجزه"[44]، مثل:

أثاف كالخدود لطمن حزنا...ونؤي مثل ما انفصم السوار

فقد أورد المعنى في مصراع وأتى المصراع الثاني بمعنى آخر يليق به[45].

2.4 التأويل:

كما جاء في اللسان هو نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ، وهو ما أراده الجرجاني بمعنى المعنى، ونجد الآمدي يتوسط في الانتصار

للتأويل باعتباره خاصا بالمتلقي فلا يطلق حكما فيه، إلا أنَّه يقر بوجوده كخاصية في نصوص أبي تمام لغوصه في المعاني وتعمده الإغماض فيها "فمن نسب البحتري إلى حسن التخلص ووضع الكلام في مواضعه، وصحة العبارة، وقرب المآتي وانكشاف المعاني، هم الكتاب والأعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة، ومثل من فضل أبا تمام ونسبه إلى غموض المعاني ودقتها، وكثرة ما يورد مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج وهؤلاء أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل إلى التدقيق وفلسفي الكلام[46].

3.4 **التناص**:

يلاحظ أن أول المفهومات النصية التي تفطن إليها الأمدي هو مفهوم التناص الذي عالجه تحت مسمى السرقات الشعرية أو الأخذ، وكان له تمثل دقيق لهذا المفهوم وتجليه في أبيات الشاعرين، فبين متى يكون مساهما في بناء النص مطابقا لمعايير النصية ومتى يكون قبيحا، وقرر أن السرقات ليست أساسا نسقط به قول الشعراء فلا نجد شاعرا سلم من السرقة الشعرية، خاصة إذا كان ممن عكف على شعر الأولين وجمعها وتصنيفها كأبي تمام الذي "كان مغرما مشغوفا بالشعر...وألف كتابا فيه واقتصر من كل علم عليه، ولم يفته شيء كبير من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأه وطالع فيه، فإذا أورد المعنى المستغرب لم يكن ذلك يبدع له لأنه يأخذ المعاني ويحتذي بها[47]، لأن الشاعر قديما كان يغير على المعنى فيطوره ويصوغه في قالب جديد، ويلتمس لهم الاشتراك في المعاني، فمما سرق أبو تمام من أشعار سابقيه قوله:

كما كاد ينسى عهد عمياء باللوى...ولكن أملَّته عليه الحمائم

أخذه من قول العتابي:

بكى فاستملَّ الشوق من ذي حمامة...أبت في غصون الأيك إلا ترنما

ومما وقع عليه الآمدي من التناص مطلع قصيدة فتح عمورية التي عدها من أحسن ابتداءات أبي تمام والتي عدها تناصا مع قول الكميت الأكبر[48]:

فلا تكثروا فيها الضجاج فإنه...محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

فقال أبو تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب...في حده الحد بين الجد واللعب

وقد أخذ قوله:

ضوء من النار والظلماء عاكفة...وظلمة من دخان في ضحى شحب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت...والشمس واجبة من ذا ولم تجب

من قول النابغة:

تبدو كواكبه والشمس طالعة...لا النور نور ولا الإظلام إظلام

لكنه يقر أن المعاني مما لا يختص به شاعر دون غيره [49]، والكثير من المعاني التي قيلت أو الأغراض التي قيل فيها هي من قبيل المعاني المشتركة الجارية في العادة[50]،

ومما نسبه فيه إلى السرق وليس بمسروق لأنه مما يشترك الناس فيه من المعاني، ويجري على ألسنتهم

ألم تمت يا شقيق الجود من زمن فقال لي: لم يمت من لم يمت كرمه

وادعى توارده على قول العتابي

ردت صنائعه إليه حياته...فكأنه من نشرها منشور

ومثل هذا لا يقال فيه مسروق لأنه قد جرى على عادات الناس إذا مات الرجل من أهل الفضل والخير وأثني بالجميل عليه أن يقولوا ما مات من خلف مثل هذا الثناء، ولا من ذكر بمثل هذا الذكر[51].

5. خاتمة:

من خلال محاولة فهم الآمدي للمعايير النصية بوصفه واحدا من النقاد الذين أبانوا عن وعي عميق بالموضوعية في اعتماد الموازنة بين الشاعرين أبي تمام والبحتري لما كان شائعا من الخصومة حولهما، ومع من قد يلاحظ من بعض الخروج عن النسق النصي، إلا أنَّه شدد كثيرا على مفهوم السبك الذي يقابل الاتساق، واضعا له معايير تقارب ما توصلت إليه الدراسات الحديثة من حسن التخلص ووضع الكلام مواضعه وصحة العبارة، وقرب المأتى، وتراوح المعنى بين الانكشاف والغموض، مع دقتها، فقد كان يصرح في كل مرة أنه يتحرى الحياد ويبتعد عن المفاضلة ويكلها إلى المتلقي، وحاول أن يصل إلى معايير اتفاقية يقيس عليها

الشعر تقارب معايير النص في الدراسات المعاصرة، ومن قبيل إنصاف هذا التراث والبرهنة أنَّه يحمل بين طياته ما يمكن التأسيس لنظريات وتطبيقات في مجال الدراسات النصية، ولو أنَّ الكتاب ينتمي إلى المدونات النقدية إلا أن استشفاف المعايير التي اعتمدها للموازنة بين النصوص ليس بالأمر العسير كونها تنبع من صميم الدراسات اللغوية (النحوية والبلاغية) التي حامت حول القرآن الكريم.

5. الهوامش:

1-محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، شركة نهضة مصر، للطباعة والنشر والتوزيع، ط7، مصر،2008، ص 343.

2-المرجع نفسه، ص 344.

3-المرجع نفسه، ص100.

4-أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، دار المعارف، ط4، مصر ج1، ص425.

5- المصدر نفسه، ص175-180.

6- المصدر نفسه، ص180.

7- ينظر: أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة الزهراء الشرق، القاهرة، مصر، 2001، ص23.

8 ينظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القر آنية، دط، ج1، ص 259.

9 ينظر: ليندة قياس، لسانيات النص النظرية والتطبيق، مقامات الهمذاني أنموذجا، مكتبة الآداب للنشر والتوزيع، ط1، 2009، ص57.

10-ينظر: محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، 2008، منشورات الاختلاف، ص17.

11- حسام أحمد فرج، نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 2007، ص15.

12- ينظر الموازنة، مصدر سابق، ج1، ص430.

19 محمد خطابي لسانيات النص، المركز الثقافي العربي، ط1، لبنان، 1991، ص(5-15).

20-روبرت ديبوجر اند، تر: تمام حسان، النص والخطاب والإجراء، دار عالم الكتاب، ط1، القاهرة، 1998 ص320.

21-الموازنة، مصدر سابق، ص 28

22-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

23-المصدر نفسه، ص30.

24-المصدرنفسه، ص28.

25-المصدرنفسه، ص23

26-المصدرنفسه، ص24

27-عزة شبل محمد، علم لغة النص بين النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب للطباعة والنشر، ط3، القاهرة، 2009، ص29.

28-الموازنة، مصدرسابق، ص 32.

29 المصدرنفسه، ص375.

30-عزة شبل محمد، علم اللغة النصي مرجع سابق، ص29

31-الموازنة، مصدرسابق، ص248.

32-المصدرنفسه، ص16.

33-سليمان بوراس، القرائن النحوية اللفظية والاتساق النحوي، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الموسم 2014/2013، ص21-22.

34-الموازنة، ص18.

35-حسام أحمد فرج، نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2007، ص117.

36-الموازنة، ص9.

37-نفسه، ص283.

38-نفسه، 285.

39-نفسه، ص307.

40-نفسه، ص413.

41-نفسه، ص7.

42-نفسه، ص293.

43-نفسه، ص295

44-ينظر: الموازنة، ص 297 -299.

45-المصدرنفسه، ص68

46-نفسه، ص4.

47-ينظر: الموازنة، ص59.

48-نفسه، ص60.

49-نفسه، ص 125.

50-نفسه، ص126.

51-نفسه، ص 123.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊